كلبي « بيجو »

للأستاذ عباس محمود العقاد

أنا أكتب هذا المقال عن « بيجو » وهو ينظر إلىّ ، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدرى أننى أكتب عنه وأشيد بذكره ؛ وكل ما يدرى أننى جالس فى هذا المكان الملعون الذى يحجب كل مكان فى البيت غيره ، وهو كرسى المكتب

فنى كل مكان فى البيت يرانى مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته ، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته ، أو يرانى مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوى على مكانه بجانبى ، ويغرينى بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة

ينتظر منى ذلك فى كل مكان إلا كرسى المكتب ... فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدرى ما يصنع : يدنو من الكرسى إلى مسافة قصيرة ، ثم يرفع رأسه وينظر ، ثم يعيد النظر كرة أخرى ، ولعله يسائل نفسه : ما بال صاحبى لا ينادينى ولا يجيبنى ؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتى ؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء ، أو نظرة الاستدعاء ، أو لمسة التربيت والاحتفاء ؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولى وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها ، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التى يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه ، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبطونه !

وقد تبعنى اليوم إلى المكتب ونظر إلىّ قليلاً ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح فى الانتظار والمناورة ، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار فى هذا المكان لا يفيد ، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذى يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة . والحق معه حتى فى آراء الأناسىّ العقلاء الراشدين !

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسى من الورق فى بعض جيئاته وصحت به منادياً : بيجو ! بيجو ! تعال ... إن كتابتى اليوم تعنيك . ألا تريد أن تقرأ ما كتبت ؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه . وتردد لحظة ، ثم قفز إلى الكرسى فالمكتب حيث الورق الذى أخط عليه هذا المقال ... كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه ، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة ! ولكنه ما لبث أن أخافنى من أسلوبه فى القراءة والمطالعة ، لأنه هو والتمزيق فى عرفه شىء واحد . وهل هو بدع فى أسلوبه وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم ؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته فى الدهليز ، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقنى بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب !

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبى « بيجو » ليس بكلبى على التحقيق ، ولكنه كلبى فى شريعة الدعوى والاغتصاب ، أو هو كلب صديقى العزيز « فيفى » الذى لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين ، ولا إخاله إلا مطالبى به قريباً بعد أن زال الموجب لاقصائه وهو انحراف صحته فى موعد التسنين ، وفيما أصابه على أثر ذلك فى مصاب أنقذه الله من خطره الشديد

والأصل فى المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيفى وصديقه بيجو ... ولكن اللوم فى هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها — أى على إفراطه فى

وحضارته هو أن يحصروا هذه الحروب فى مناطقها حتى لا تعدوها أو تمتد إلى سواها كما يفعل رجال المطافئ حين يرون النار قد شبت فى بيت أو مصنع . وليس هذا من التشبيه أو التمثيل فانها النار هنا وهمنا بلا فرق أو تفاوت سوى أن نار الحريق أهون من تلك التى يؤججها التدبير المحكم

ومن العسير أن يتكهن المرء بشىء فقد صار العالم يعيش يوماً فيوماً فاذا مضى يوم ولم تتفاقم فيه أزمة ولم يستفحل فيه خلاف حمد الله وشكره ورجا أن يجىء الغد بما يفرج الكرب أو يرجئه أو يلطفه على الأقل .

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصداقة لا على تقصيره فيها — فعاذ الله أن يتهم كلب بخيانة الأصدقاء

كان بيجو يرى « فيني » على سريره ساكناً من التعب والاعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه ، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التى لا يكل عنها ولا يتوانى فيها ، وهى المواثبة واللاعبة واصطناع العض والمصارعة ، ومولاه فى شاغل عن ذلك ولكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات

وإذا أقبل الطبيب وصرخ « فيني » من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هى إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب « بيجو » توشك أن تنغرس فى ساق الطبيب الذى يعتدى على مولاه بما يبكيه !

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه المفاجآت فلا راحة ولا قرار فى البيت كله ، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب « بيجو » على إفراط صداقته بالنفى من جوار مولاه فى أثناء توعكه وانجراف مزاجه ، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه ، حتى تنجلى الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح « بيجو » شخصية من شخصيات البيت المعدودة ، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه ، ولكنه يغضب ويتذمر إذا أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها ، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب ...

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب ، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الاجابة ، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه . ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التليفون . مع أن جرس الباب يدق فى المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق فى المكان الذى يجرى إليه . ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس فى المطبخ كلما جرى الخادم لفتحه على إثر سماع دقاته ، ولكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات

ومن الأعمال والواجبات التى فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لا يدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامى ويعود إلىّ ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والترحيب المحبب إليه

ألأجل الطعام يهش لى « بيجو » هذه الهشاشة ويرعانى هذه الرعاية ؟ أنا أود من الباحثين فى طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم فى أسباب التألف والمودة بين الحيوان والإنسان ، فان إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه ، ولكن لاشك أيضاً فى أن الكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معانى الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالنافع ؛ وأوضح دليل على ذلك أن « بيجو » يعتبر نفسه تابعاً لمولاه « فيني » ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه ، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه . أما « فيني » فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ فى مذاقه ، وقد يتجرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع أصبعه فى عينه ، وبيجو فى كل ذلك لا يقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه

فلما زارنى « فيني » مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخف « بيجو » إلى الأب الكبير الذى يعنى بإطعامه وإيوائه ، ويشمله بمودته وحبائه ، ولكنه التفت أول ما التفت إلى « فيني » العزيز دون غيره ، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه ؛ وجهدنا جهداً شديداً فى التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته ، وكنا سبعة منا أستاذ فى علم الزراعة والحيوان ، وأخ له أديب جم الاطلاع ، وصديق مهذب من أدباء الموظفين ، وسيدة انجليزية وابنها اليافع ، ووالد فيني وكاتب هذه السطور ، فأتعبنا الكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق . فماذا بين بيجو ومولاه فيني من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التى لا شأن لها بالطعام والشراب ؟ ولماذا يحسب

نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه ؟ إنه لا يفقه أنهم أهدوه إلى فيني الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره ، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية ، وهي على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هـذا في الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن « بيجو » لا يطيق « الطاهي » احمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النـداء على اسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء ، وهو مع هذا يألف فراش المنزل « محمداً » ويهش له ويستريح إلى مصاحبته في المنزل وفي الطريق ... فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك ؟ أكلاهما يقدم له الطعام ، ويزيد صديقه « محمد » بتجريعه الدواء الذي يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور . غير أن الطاهي « احمد حمزة » يتحاشى « بيجو » خوفاً من النجاسة فيشعر « بيجو » بجفائه ويلقاه بمثله ، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه

من إدراكه «للمعاني» الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالي ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه ، ولكنه إذا التفت إليك ورأى أن العصا هي عصا التأديب التي تخوفه بها ظهر عليه الرعب ، أو ظهر عليه الأسف والتوسل ، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه ، وهو استياء سيده وإعداده له عدة العقاب

***

والخلاصة أن « بيجو » مخلوق مفيد ومخلوق أنيس ، وهو أفيد ما يكون في المكتبة التي يغضها ويستثقل ظلها ، لأنني استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة في علم النفس وعلم الاجتماع

يقول علم النفس إن التعاطف في التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار ؛ وبيجو يؤكد لي ذلك ، لأنني أرى منه أن الكلاب أسرع تعلماً من القردة ، وهي أرفع في مرتبة التكوين والادراك ؛ وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الانسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ

ويقول علماء الاجتماع من أنصار « الفاشية » إن الغرائز لا تتبدل ، وإن الحرب والعدوان غريزة الانسان ، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام ، ونصح الناصحين بالأخاء والعدل والمساواة .

وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض ، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان ، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بني الانسان ، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن

وبعد « بيجو » يحق من أحسن الشراح للعالم الروسي العظيم « بافلوف » صاحب التجارب المشهورة في اخوان بيجو من الكلاب الروسية ... فانه جرب أن الكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام ، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه ، فاذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية طعام ؛ فبنى على ذلك مذهبـه في مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية . وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى في علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها في بعض الأطفال ، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه ، ويقرنون الشيء المرذول الذي يحبه الطفل بالشيء المزعج الذي يصده عنه وينفره من إتيانه ، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذي كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه ، فقد عهدته في منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسلة والطوق ، لأنهم كانوا يقيدونه بهما في حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله . فلما جاء عندي وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسلة والطوق من أحب الأشياء إليه وأدعاها إلى طربه وابتهاجه ، لأنه تعود كلما ربط بالسلسلة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة في الخلاء !

ولبيجو فنون أخرى يشارك في تفسيرها وتفهيمها ، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها ، وإن في بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الكريم بيجو ... الذي نخشى أن نسطو عليه ، لفرط ما نستفيد منه ونأنس إليه

عباس محمود العقاد